حاجي بابا إصفهاني

للكاتب الانجليزي "جيمز موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثامن والثلاثون

بين الراهب والضمير

أتم الشاب الأرمني قصته وتركني بين أشد عوامل الدهشة من غرابة قصته والاعجاب بحسن صياغته. ثم أذنت له بالذهاب مع بعض جنودي لرؤية زوجته في المنزل الذي وضعناها فيه لكي تستريح، وقلت في نفسي يستحيل أن تكون هذه القصة الطويلة التي قصها عليّ مخترعة كلها لأنني قد رأيت بنفسي المرأة التي يتكلم عنها ووجودها أقوى دليل على صحة الرواية التي رواها. ولكن إذا تركتهما وعلم السردار ذلك فلا شك أنني سأفقد وظيفتي وربما فقدت أذني أيضاً. إن الرحمة لا تلائم مصلحتي مادمت أريد البقاء في هذه الوظيفة؛ ولن أكون حكيما كما يقولون عني إذا لم أتبع حكمة لقمان الذي يقول فيها: «ما ينبغي للنمر أن يظهر بمظهر الحمار كيلا يجمع بين الشراسة وبين الخداع. فمن كان يشبه النمر فليظهر بين الناس شرساً كطبيعته لأن ذلك أقرب إلى الفضيلة. وما ينبغي للحمار أن يظهر بمظهر النمر، فان العالم يكون أشد قسوة عليه منه على سائر الحمير. فمن يشبه الحمار فليظهر بين الناس حماراً، فان ذلك أقرب أيضاً إلى الفضيلة»

بقيت متردداً فيما يجب على عمله نحو يوسف هل أطلق سراحه أم أقوده إلى الأسر؛ وبالتالي هل أكون غمراً أم خماراً

وبينما كنت أفكر في ذلك عاد يوسف الأرمني وأخبرني أن صحة زوجته تحسنت بعد أن استراحت في ذلك المنزل، ولكن الضعف الناشئ عن النزيف كان لا يزال مانعاً لها من الانتقال إلا إذا طاردها السردار فاضطرت إلى الفرار من وجهه، وأنها أخبرته بقصتها منذ اختطفها الفارسان إلى أن وجدها يوسف

قالت: إن اللذين اختطفاها ذهبا بها في الحال إلى بيت السردار فأمر بوضعها في منزل الحرم بين جواريه وأجازهما على اختطافها وإن السردار لما رأى ضعف بنيتها وهزال جسمها أهملها فجعلت بين الخادمات العاديات فحمدت الله على ذلك. وكانت تتجنب الظهور بأي مظهر لكي تبقى مهملة. وقد نجحت في ذلك أول الأمر ولكن سوء الحظ سلط عليها عجوزاً من جواري القصر تظاهرت بودها وأفهمتها أنها تريد مساعدتها على استرداد حريتها

فلما أسفت مريم إليها واعترفت لها برغبتها في الفرار ظهر غدر العجوز ونقلت الحديث إلى السردار

قالت مريم: «فلما سمع ذلك اغتاظ غيظاً شديداً وأمر باحضاري وأسمعني ما أكره سماعه من الوعيد والتأنيب وهددني بالموت إذا حاولت الفرار وأمرني بأن أبرهن على إخلاصي بالاستعداد لمقابلته في تلك الليلة فصممت على أن أهرب بمجرد عودتي بإلقاء نفسي من النافذة فاما أن أتمكن من النجاة وإما أن أتخلص من الحياة

ولما فتحت النافذة كنت أريد إلقاء نفسى منها ولكننى رأيتك يا يوسف فحمدت الله

وكان بعض الجوارى قد جئن قبل ذلك بلحظة فأمرننى بالاستعداد لدخول الحمام فصرفتهن عنى بحيلة وأغلقت باب الغرفة قبل أن أفتح النافذة مصممة على اللحاق بك أو على الموت محاولة ذلك »

بعد أن أتممت يوسف تلك القصة التى رويتها له زوجته أظهر اهتماماً شديداً بمعرفة رأيى فى أمره وتوسل إلى أن أعده ببذل مساعدتى له ومنحه صداقتى ، وكان جنودى قد عادوا فى ذلك الوقت من الأماكن التى كانوا متفرقين فيها وأعدوا جيادهم وجوادى لاستئناف سيرنا ، وكان رأيى قد استقر بعد تردد فى شأن الأرمنى وزوجته فناديته وقلت له :

« بعد القصة التى سمعتها منك يا يوسف صار محالاً علىّ أن أطلق سراحك لأنك قد اعترفت بأخذ سيدة من قصر السردار ، وذلك ذنب قد تعاقب عليه بالموت ، وقد كان واجباً على ألا أمهلك وتلك السيدة إلى الآن بل أبعث بكما إلى أريفان ساعة اعترفت لى هـــذا الاعتراف . ولكن إذا قبلت ما سأعرضه عليك فانى لن أفعل هذا »

ثم أخبرته عن وظيفتى وعن المهمة التى أرسلت لأدائها وعرضت عليه أن يرافقنا فى تلك المهمة فيكون دليلاً لنا فى البلاد التى يعرفها أكثر منا وقلت : « إذا رأيت منك إخلاصاً فى خدمتنا فانى أعدك بأن أدافع عنك عند السردار وأتوسط عند رئيسى وأحصل باذن الله على أمر باطلاق سراحك وفى هذا الحين تبقى زوجتك بالمنزل الذى هى فيه الآن حتى نعود إليها سالماً »

لما سمع يوسف قولى دنا منى فقبل يدى شاكراً ووافق على ما عرضته عليه ، فأذنته بأن يعود مرة أخرى إلى زوجته ليودعها وليخبرها بما قلته له فشكرنى مرة أخرى وسار مع واحد من جنودى

الفصل التاسع والثلاثون

يوسف الأرمنى يبرهن على أنه أهل لثقة عاجى بابا

سرنا متجهين نحو الحدود القوزاقية ، وكان يوسف خير دليل عرفناه لمعرفته بهذه الجهات معرفة دقيقة أدهشتنا ولم يبد منه أى ميل لزيارة قريته وقال لى إنه لن يستطيع الذهاب إلى تلك القرية حتى ولو أمرته بذلك لأنه أنذر ألا يعود إليها إلا مصحوباً بزوجته

لقد اتضح أن الخبر الذى بلغ مسمع السردار من تقدم الجيش الروسى غير صحيح لأن الروس كانوا لا يزالون مرابطين على شاطئ نهر بيا كي وقد احتلوا قرية « جاملو » وتحصنوا فى « قرقليسه » وكنا قريبين من هذين المكانين وأردت أن أعرف عدد الجيش الروسى فيهما وحالته الحربية فخطر لى خاطر يتعلق بذلك وبيوسف الأرمنى ، وقلت فى نفسى : « إن بقاءه على الحالة التى هو عليها لا يشرفنا فاما أن نفقده وإما أن نحميه وعزمت على إرساله ليتجسس على الجيش الروسى فان أدى مهمته استحق العفو عنه وإن ذهب ولم يعد عدنا إلى القرية التى تركنا فيها زوجته وأخذناها إلى السردار ونلنا مكافأته

ولما طابت الأرمنى وفاتحته فى الأمر أدرك مقصدى وغايتى بمثل سرعة البرق وقبل المهمة التى عرضتها عليه ، وما هو إلا أن أذنت له حتى وضع بندقيته على ظهره وسار نحو القرية

بعد ذهابه قال أحد جنودى : « لقد ذهب ولن يعود »

فقلت له : « إن الرجل أرمنى وقد كان يفعل ذلك لولا وجود زوجته فالأرمنيون لن يتركوا نساءهم مهما كانت الأسباب »

فقال جندى آخر : « هذا صحيح ولكنه مسيحى والروس مسيحيون كذلك ويبعد أن يجتمع بعضهم ببعض ثم يعودون إلى المسلمين وأنا أراهن على جوادى هذا إن عدتم إلى رؤيته »

قال جندي ثالث أشيب الرأس قد جعدت وجهه السنون : « ما هذه المهاترة ؟ إنك لا تملك الجواد حتى تراهن عليه فالجواد جواد الشاه »

فقال ذلك الجندى معانداً : « ولكنى أراهن عليه وما كان مملوكا للشاه فهو مملوك لي »

أسكت الجنديين ورأيت عن كثب مكاناً به حشائش تصلح لاطعام الخيل فأمرت الجنود بالاتجاه نحوه ، ونزلنا عن الجياد وأقمنا الخيام وأعلنت رغبتى فى الاقامة بهذا المكان حتى يعود يوسف ثم أرسلت بعض جنودى ليحصلوا على كبش أو نعجة لنأكل فذهبوا وعادوا بكبش سمين ذبحناه وأوقدنا النار فشويناه وأكلنا بشهوة قوية وأبقينا للغد ما زاد لدينا

أظلم المساء ولم يأت يوسف ولكن لما استعددنا للنوم تاركين رجلين منا لحراسة الجياد سمعنا صوتاً من جهة بعيدة . وكان القمر إذ ذاك بدراً وكانت قد مضت ساعة بعد منتصف الليل ثم سمعنا الصوت مرة أخرى ، وكان فى هذه المرة أدنى إلينا فاستيقظنا وتكررت الأصوات فلم يبق لدينا شك فى أن المقبل هو يوسف ثم جاء وكان فى حالة شديدة من التعب ولكنه مع ذلك كان قادراً على أن يسرد علينا قصته

قال إنه لما وصل إلى مدينة « حاملو » عرفه بعض الجنود الروسيين الذين كانوا فى قريته الفارسية فأحسنوا استقباله وأخذوه إلى قائدهم الذى سأله عن الغرض من مجيئه فلم يجد خيراً من الاجابة بأنه جاء للبحث عن زوجته وقد كان له من النكبات التى حلت بقريته وشردت أهله ما جعله قادراً على الكلام دون أن يثير شبهة حول نفسه ، ثم سمح له بالبقاء فى القلعة وتمكن بابدائه ملاحظات يظهر فيها إخلاصه . وبسؤاله مع التظاهر بعدم الاهتمام — تمكن بذلك من معرفة ما ذهب ليعرفه وليخبرنى به من عدد الجنود ومقدار السلاح وما يمكن معرفته عن خططهم فى الحرب

أمرت بتقديم الطعام إلى يوسف وأذنته بأن ينام ليستريح وتأملت فيما سمعته فلم أجد فيه شبهة الكذب . وفى الصباح أمرت جنودى بالاستعداد للعودة نحو أربفان وجعلنا الطريق إليها من جهة أشتارك ، وهناك علمنا بعض الشىء عن حركات السردار وقائد جنوده ، وأذنت ليوسف أن يزور زوجته ، فذهب وعاد فرحا مسروراً وقال إنه وجدها على أحسن حالة وقد شفيت من جراحها وشكر لى تكرار إحساني إليه

وكان السردار قد انتقل من أربفان إلى مقر البطريركية الأرمنية فتقدمت إليه ومعى يوسف

الفصل الأربعون

ماضى بابا يدافع عن يوسف

يدعو الأرمنيون هذه المدينة « إيتشميازين » ويدعوها الايرانيون والأتراك « أوتش كليسة » أى الكنائس الثلاث ! وهى قرية كبيرة واقعة فى

وسط سهل خصيب تروبه جداول متعددة، وبالقرب منها جبل « أجرى داج » الذى يقدسه المسيحيون عموماً والأرمنيون خصوصاً للسبب الذى أخبرنى به يوسف وهو أن سفينة نوح رست على هـذا الجبل عند ما انتهى الطوفان

وبطريرك الأرمن فى هذه المدينة مطلق النفوذ على جميع الطائفة الأرمنيـة ، وهى تدعوه بلقب « الخليفة » وهو لقب يطلقه المسلمون على أكبر رئيس يجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية . ولكن المسيحيين فى آسيا لا يطلقونه إلا على البطريرك الأرمنى الذى تكاد تكون سلطته على أتباعه تعدل سلطة الخلفاء فى بغداد فى الأزمنة السالفة

وجدنا جيوش السردار بالقرب من الكنيسة وسمعت أحد ضباطه يقول : « نحن سنحرق هؤلاء الكفار ونشرب ما فى كنائسهم من النبيذ »

فقلت له : « هل أنت مسلم وتتكلم عن شرب النبيذ ؟ لقد أصبحت كافراً مثلهم »

قال لى الضابط : « إن السردار يشرب الخمر كما يشربها الكفار ولا أعرف لماذا لا أحذو حذوه فى ذلك »

وقد ظهر لى بعد هذا الحديث أن جنود السردار احتلت الكنيسة وأن القسس أظهروا رضاهم وبذلوا مساعدتهم مكرهين . وكان الخوف متسلطاً عليهم من غضب الايرانيين

وقد عرف القراء قبل الآن وصف « الناز كشى باشى » الذى صار قائداً لجنود السردار، أما السردار نفسه فكان وجهه أشد تجهماً منه حتى وصفه شاعر الشاه بأن وجهه يشبه « اجرى داج » وهو الجبل الذي كنا بالقرب منه . وكانت صفاته كصفات النمر وشكله قريباً من شكله

ومجمل القول فى وصفه أنى لم أر قط شبيهاً له ولم أتصور قبل رؤيته أن إنساناً يكون بهذه الخلقة وكانت نظراته تدل على أنه لايحترم قانوناً من قوانين الأرض ولا السماء . وكان يكظم غيظه إذا شاء ولكن إذا ثار غضبه فلا حد لقسوته وعنفه

على أنه مع هذه الصفات القبيحة كان ذا صفات جعلته محبوباً عند جميع مرؤوسيه ، فهو كثير التبسط معهم يطلق لهم الحرية فى كثير من الأمور، وهو شديد الذكاء . وكان يتبع مع الشاه خطة سياسـية جعلته محبوباً لديه موثوقاً به . ومن أخص صفاته أنه يخلص فى حماية من يراهم مخلصين فى خدمته . وربما لم يكن فى البـلاد الفارسية من ينافسه فى شرب الخمر إلا صديقه الناز اكشى باشى . وقد دخلت أمام هذين الرئيسين ومعى ثلاثة من أكبر أتباعى

فقـال لى الناز اكشى باشى ساعة رآنى : « مرحباً بك يا حاجى بابا ! أخبرنا كم روسياً قتلت ؟ هل ممك بعض رؤوسهم ؟ أرنا ! »

قال لى السردار : « كم عدد الروسيين الذين على الحدود ومتى تبدأ المواقع ؟ »

فأجبت بعد خطبة التحية المعتادة التى يجب أن يلقيها كل مرؤوس أمام رئيسه وقلت : « لقد فعلت أيها السيدان كل ما كان فى وسعى أن أفعله ، فقد عرفت الجواب على كل سؤال أردتما أن تسألاه وعندى الأدلة الكافية على أن حظنا فى صعود »

قال السردار : « إن حسن الحظ شىء لا بأس به ولكننا لا نعتمد عليه بل كل اعتمادنا على سيوفنا »

ثم نظر إلى صديقه الذى قال : « نعم إن ضربة

السيف أصدق من اصطرلاب المنجم وإن جواداً وسيفاً ومسدساً لأفضل عندي من الحظ الحسن »

قال السردار : « وماذا تقول فى النبيذ المعتق؟ إن حاجى بابا قد قام بمهمته خير قيام وتريد مكافأته على ذلك بزجاجة من نبيذ الأرمن »

ثم قال لى : « من الذى يقود الجيوش الروسية ؟ وفى أى معسكراتهم الفرقة القوزاقية ؟ وهل لديهم مدافع كثيرة وأين مركز قيادتهم العليا ؟ »

ثم نادى كاتبه اسماعيل خان وأمره بأن يدون جوابي فقلت : « أقسم بنفس السردار وفداؤها نفسي وأقسم بالخبز والملح الذي أكلته مع النازا كشى باشى أن الروس ليسوا شيئاً يعتد به وهم إذا ماوزنوا بالجيش الفارسى لا يساوون الكلاب ، وأقسم لكم بعد الذى رأيته بعينى أن فارسياً واحداً معه رمح وسيف يستطيع أن يقتل بسهولة عشرة من الروس »

أظهر رئيسى سروراً شديداً وقال لى : « لقد صدقت فراستى فيك ياأصفهانى فقد حققت ثقتى بك »

فقلت : « إن عدد الروس الذين على الحدود قليل لا يتجاوز السبعمائة أو الثمانمائة وقد يبلغ الألف أو الألفين ولكنه على كل حال لا يتجاوز ثلاثة آلاف ولديهم عشرة أو عشرون أو ثلاثون مدفعاً؛ أما القوزاق فهم أفراد قليلون ومن الممكن إخراجهم من الجيش الروسى بدفع رشوة إليهم وهذه عادتهم التى اشتهروا بها ويكفى أحدهم ثلاثون أو أربعون أو خمسون طومانا »

قال نازا كشى باشى : « ولماذا تذكر القوزاق؟ إن أحدهم على جواده لايفضل الفرد على ظهر تيس »

قلت : « هذا هو وصفهم؛ أما قائدهم فانهم يلقبونه « باليجور المجنون » وذلك لأنه لا يفر مطلقاً ولا يسمح لجيشه بالتقهقر مهما كانت الظروف المحيطة بهذا الجيش وهم يقولون إن فى جيبه مصحف السردار »

فقال السردار : « إذن فلعله هو القائد الذى حاربته فى العام السالف فان هذا الوصف ينطبق عليه. لقد أدهشنى كل الدهشة بتصرفاته الغريبة وخططه وقد سرق منى مصحفى فى العام السالف واست أعرف كيف وصل إليه . ولكن ذكرك هذه المسألة يدل على أنك صادق ياحاجى بابا ، كم مدفعاً تقول إنه لدى الجيش الروسى؟ »

فقلت : « أربعة أو خمسة أو ستة »

قال الكاتب مراجعاً لى : « لقد قلت الآن كما هو ثابت عندى إن عدد المدافع عشرون أو ثلاثون فأى القولين هو الصحيح ؟ »

فصاح السردار : « أتكذب هنا ؟ »

وظهرت علائم القوة والقسوة على عينيه وقال: « أقسم برأسى أنه إذا اتضح كذبك فى أية كلمة قلتها فلن تغتفر لك هذه الجريمة . إن ذقونا لم تخلق ليضحك الناس عليها »

قلت : « الحقيقة ياسيدى السردار أننى لم أذهب بنفسى إلى مكان الجيش الروسى فأنا إنما أقول مايعلق بذهنى من كلام الرجل الذى أرسلته وهو موجود . إن عظمة مولاى السردار قد حملت أحد الشبان الأرمنيين على المخاطرة بحياته طامعاً فى أن تعفو عنه »

قال السردار : « أعفو عنه؟ هل فى الدنيا أرمنى يستحق العفو ؟ » فسردت عليه قصة الأرمنى من أولها إلى آخرها وكنت أعتقد أن دفاعى عنه علناً بهذه الكيفية يجعل من المستحيل على السردار أن يعاقبه بعد أن كفلت له العفو على شرط قام بوفائه ولكن لما أتممت القصة لم أسمع من الموجودين غير

النطق بالشهادتين وصعد السردار فى نظره وصوبه ولوى شفته السفلى على أشكال متعددة . وأخيراً قال : « لقد قام هذا الأرمنى بأعمال عجيبة »

ثم نادى الخادم فأمره بأن يحضر غليونه، ولما صعد نفسين أو ثلاثة أنفاس أمر باحضار الأرمنى ورئيس الكنيسة «الخليفة» فجئ بيوسف الأرمنى، فالتفتت إليه كل العيون وبدا الاعجاب برؤيته بعد أن سمعوا قصته ورأوا منه شاباً قوياً تبدو عليه كل علائم الرجولة . وحدد السردار فيه نظرة وأبدى النازا كشى باشى علامات متعارفا عليها عند جميع الايرانيين تدل على شدة الاعجاب

وجئ بالخليفة وهو رجل طاعن فى السن ولكن لا تزال بادية عليه علائم القوة .

وكان لا بساً ثياباً سوداء لأن هذا اللون هو الذى اختص به الأرمن ، وكان معه ثلاثة من القسس

بعد أن وقف الخليفة دقيقتين أو ثلاثاً أمام السردار دعى إلى الجلوس فجلس دون أن يحيى باليدين كما هى العادة المتبعة فى مثل هذه الحالة . ثم التفت إليه السردار وقال : « لقد أصبحنا نحن المسلمين أذل من الكلاب فى إيران، فالأرمن يعتدون على منازلنا ويختطفون نساءنا وجواريا . قل لنا يا خليفة ما هذا ؟ هل هذا من عمل الله أم من عملك ؟»

انزعج الخليفة من هذه المفاجأة التى لم يكن ينتظرها فبدا عليه الذعر . وتندى جبينه عرقاً وقد علمته التجاريب أن المفاجآت التى من هذا النوع تكون فى العادة بداية لما هو أشد منها . وعزم على اتباع خطة المقاومة فقال : « ما هذه اللهجة التى تكلمنى بها ؟ إننا لا نسلم من أذاكم فضلا عن أن نفكر فى ارتكاب التهم التى تنسبها إلينا . إننا من رعايا الشاه وأنت حامينا ونحن فى أمن ودعة مستظلين بظلك فمن هو الرجل الذى تنسب إليه هذه التهمة ؟ »

قال السردار : «هذا هو» وأشار إلى يوسف ونظر إليه وقال : « قل لى هل اختطفت جاريتى أم لا ؟ »

قال يوسف : « إذا كنت قد أخذت غير زوجتى فاقتلونى، إن التى تقول إنها جاريتك هى مريم زوجتى وقد ألقت بنفسها من نافذة دارك حين رأتنى، وكلانا من رعايا الشاه وأنت تعرف هل لك حق استرقاقنا أم ليس لك هذا الحق ؟ نعم نحن أرمنيون ولكننا آدميون ونحن من رعايا الحكومة الايرانية وما حدث قط أن الشاه أكره أو أمر باكراه امرأة متزوجة على أن تكون رقيقة لأنها مسيحية . والذى لا أشك فيه أنك حسبت لما أمرت بادخالها إلى منزلك — أنها فوزانية أسرت فى الحرب . ولكن عليك متى علمت أنها من الرعايا ألا تزعم أنها من جواريك »

ازداد خوف الخليفة لما سمع اللهجة التى يتكلم بها الشاب الأرمنى فأسكته باشارة دالة على الغضب والحدة . ولكن السردار الذى اعتاد سماع هذه اللهجة سر منها بدلا من أن يغضب ونظر إلى يوسف نظرة تدل على أنه نسى السبب الذى استدعاه من أجله .

وكان يوسف لا يزال يتكلم فأسكته السردار بقوله : يكفى ! يكفى ! اذهب وخذ زوجتك . وبما أنك قمت لنا بخدمة فسأستبقيك فى خدمتى وأجعلك من حرسى الخاص . إذهب الآن إلى رئيس الحرس ليعلمك واجباتك . ويلبسك الثوب الرسمى ثم عد إلينا . وإذا حسن مسلكك فى المستقبل فسأعفو عن غلطتك الماضية »

سجد يوسف عند قدميه وأعرب له عن الشكر على إحسانه وقبل طرف ثوبه ولكنه لم يعرف ماذا يقول ولم تتكون لديه فكرة بالقبول أو الرفض عن هذه الوظيفة التي عرضت عليه .

ودهش كل الحاضرين من مسلك السردار مع يوسف لأنهم كانوا ينتظرون أن يأمر بقتله في الحال ، وهز الناز كشي باشي كتفيه ، وأحس « الخليفة » بأن عبئاً ثقيلا رفع عن عاتقه واختفت نقاط العرق التي كانت عالقة بجبينه وبدت على وجهه ابتسامة وهنأ الكل السردار على حلمه وكرم أخلاقه وشبهوه بكسرى أنو شروان .

وسرعان ما انتقل الخبر إلى المعسكر فلهج كل الجنود بمدح رئيسهم الرحيم . ولست أعرف ما هو الشعور الحقيقي الذي كان يشعر به السردار في هذه اللحظة ولكن كل الذين يعرفون أخلاقه يثقون بأن الرحمة لم تكن إحدى الدوافع التي تدفعه إلى أي عمل .

الفصل الحادي والأربعون

هروب الأرمنيين مع الروس

كان « الناز اكشي باشي » ، والسردار ينصتان إلى ما يقوله يوسف الأرمني عن مشاهداته في الجيش الروسي . فلما أتم قوله قررا القيام بالهجوم في الحال وصدرت الأوامر للجيش بالتقدم نحو حاملوا

ومشت المدفعية إلى الجبال وتبعها الفرسان والمشاة . ولا يفوتني أن أقول إن الأرمني زارني قبل أن يتحرك الجيش للقتال

ولم يعد يوسف ذلك الفلاح الذي استصحبته في الطريق ، بل صار حارساً من حراس السردار يرتدي ثوباً رسمياً ، ويعلق إلى جنبه سيفاً . وكان ثوبه أحمر اللون ذهبي الأزرار والحواشي ، وعلى صدره حزام من الكشمير فيه خنجره ومسدسه ، وعلى رأسه القاووق الجميل الذي يلبسه جنود الحرس وقد رجل شعره الذي لم يكن مرتباً تحت غطاء رأسه القديم المصنوع من الجلد ، فأصبح لحاله وروعته كأنه إنسان آخر ، وقد جعلته خصل الشعر المنسدلة على جبينه أشبه بالنساء منه بالرجال . وساعد على تقوية هذا الشبه ظهور أجزاء جسمه في ثوبه الضيق الجديد ، وكان وجهه يحمر خجلاً إذا أطال أي إنسان النظر إليه

شكرني يوسف في زيارته على المساعدات التي قدمتها إليه ، وعلى الوفاء بوعدي في الدفاع عنه . وقال لي إنه اعتقد لما بدأ السردار بالحديث المتقدم أنه فقد زوجته ، وإنه لذلك أجاب جواب من يريد أن يقتل حتى لا يعيش بعد أن تؤخذ زوجته منه

وقال إن نجاة زوجته ونجاته هما الشيئان الداعيان لسروره . أما تعيينه في هذه الوظيفة فليس بالشيء الذي يسره أو الذي يطيقه ، وإنه يريد العودة إلى العمل الذي اعتاده في الحقول أو الاشتغال بالتجارة أو بقاءه متبلداً في خدمة السردار دون أن يعمل عملاً ما ليس مما يتفق مع طباعه . وقال لي إنه لم يعجل بالاستقالة ولم يرفض هذا العمل خشية غضبه ، ولأنه يرى الاذعان لكل شيء طالما كانت زوجته في مأمن . وقال إنه يفضل أن يعيش راعياً للخنازير في جبال جرجان ، وأن تكون زوجته معه على أن يعيش منعماً في القصور الفارسية وزوجته معرضة للسبي

لم يسعني عندما سمعت هذا من يوسف الأرمني

غير أن أطريه ، وإن كنت أتمنى أن يقع اختياره على رجل غيري يجعله أميناً لسره لأن وقوع اختياره على سيجعلني مسئولاً عنه إذا فر

في ذلك الوقت كان الجيش يتقدم إلى اشتارك ، واستأذن يوسف في الذهاب لرؤية زوجته . ولما وصلنا إلى الميدان ظهر فقدان الصبر بأجلى معانيه على السردار . فأبى أن يبقى مع المشاة لأن حركاتهم أبطأ من فرقة الفرسان . وتولى قيادة الفرقة الأخيرة. ومن عادات الفارسيين أن يحتقروا المشاة في الجيش ولست أقول شيئاً عن رئيسي النازا كشي باشي . فقد ملأ الدنيا بادعائه حتى خال كل من سمعه أنه لم تبق إلا لحظات يصبح بعدها الجيش الروسي كله في أسرنا أو يقضى عليه ، وكان يريد أن يكون في فرقة الفرسان مع السردار ، ولكنه اضطر إلى اللحاق بالمشاة كأمر رئيسه ، وكنت معه في هذه الفرقة

وكان السردار يريد الوصول إلى حاملو في ساعة الفجر لكي يفاجئ الروسيين عند أبوابها وسرنا وراءه لكي نتجده إذا اضطروه إلى التقهقر

وكان وصولنا إلى النهر في ساعة الشروق وكنا على وشك العبور عند ما صاح صوت عال ثلاث صيحات بلغة لا نفهمها فوقفنا والتفتنا إلى الرئيس الذي صار وجهه أشد اصفراراً من أوجه الموتى

قال بصوت خافت : « ما هذا ؟ ما الذي نفعله ؟ أشر علي يا حاجي بابا ! »

فقلت : « لا أظن هنا أحداً من الأعداء ولكن ربما كان في المكان غول مثل الغيلان التي يقولون إنها في أشتارك »

وبعد لحظة سمعنا أصواتاً بربرية وسمعنا طلقاً ناريا ، ورأينا على الشاطئ الآخر للنهر رجلين تدل ثيابهما على أنهما من جنود الروس . فلما رأى أن ليس موجوداً من الأعداء غير هذين عادت إلى وجهه دمويته وصاح : « اقتلوهما اقتلوهما ! هاتوا رأسيهما ! تقدموا ! »

فألقى بعض جنودنا بأنفسهم في البحر شاهرين سيوفهم وثبت الجنديان الروسيان في مكانهما ثباتاً أدهشنا وقتلا اثنين من جنودنا التي كانت تعبر النهر واضطر الباقون إلى التقهقر ولم يبد من أحد أي ميل إلى أن يحذو حذوهم ، وعبثاً حاول القائد بالوعد والوعيد وببذل المال أن يحمل أحداً على التقدم وأخيراً تقدم بنفسه وهو يصيح : « أنا سأذهب وحدي فلا يتبعني أحد » ثم وقف وقال لي : « ألا تذهب فتأتي برأسي هذين الرجلين ؟ إنني أعطيك في مقابل ذلك أي شيء تطلبه »

ثم همس في أذني قائلا : « إذهب فأبي واثق بأنك تستطيع قتلهما »

وفي اللحظة التي كان يكلمني فيها أصابه سهم من أحد الروسيين فملا صخبه وضجته وبلغت مخاوفه حد اليأس وأقسم أغلظ الايمان أنه سيقتل كل من يخالف أمره وقال إن الروس حقراء مهينون لا يستحقون أن يجبن الفرس أمامهم هذا الجبن »

وعند هذا ظهرت فرقة من الجنود الروسية وظهرت الفرقة التي يقودها السردار ، وكانت قد اصطلت ناراً حامية من الأعداء وضعفت ضعفاً شديداً ، وبالرغم من أن عمل نازا كشي باشي في ذلك اليوم كان جديراً بأن يمنعه عن المفاخرة طول عمره فانه كان لا يزال يتبجح بادعائه

ثم وصلت رسالة من السردار يطلب فيها إرسال

حاجى بابا إليه فذهبت مع الرسول وكانت أول جملة سمعتها من السردار قوله : « أين يوسف الأرمنى ؟ أين هو وأين زوجته ؟ » فخطر لى أنه قد هرب فأقسمت أننى لاأعلم ولم تعد لى معرفة بحركاته، فأطال السردار من نظره إلى وحرك شفتيه بأشكال مختلفة وأقسم أن يصب فوق رأسه جام انتقامه وأن ينتقم أيضاً من أهل قريته ومن كل إنسان له علاقة به وأقسم أنه إذا اتضح أننى ساعدته على الفرار بأى حال من الأحوال فانه سيوجه كل نفوذه ضدى ليخفى ظلى عن الأرض

وسمعت بعد ذلك أنه أرسل بعض رجاله إلى جافيشلو ليقبضوا على أبوى يوسف وأقاربه وكل من بينه وبين يوسف صلة من القرابة وأمرهم بأن يحرقوا كل ما تقع عليه العين من أمتعته

ولكن الشاب الذكى كان يتوقع كل ذلك فاحتاط لوقوعه وسار هو وزوجته وأهله فى أرض روسية قبل أن يعلم السردار بأنه ترك جيشه وقد قابلهم الروس مقابلة حسنة وعرضوا عليهم ماخسروه وأقطعوهم أرضاً واسعة

الفصل الثانى والأربعون

حاجى بابا لدى الشاه

عدت إلى رئيسى نازا كشي باشي فأخبرته بالوعيد الذى توعدنى به السردار ولما كنت أعلم مقدار التحاسد بين جميع الرؤساء الايرانيين فانى لم أتردد فى إخباره بأنى مستاء من اللهجة التى كلمنى بها لأنى مرؤوس لغيره وقد كان عليه أن يراعى ذلك لأنى لا أقبل هذه اللهجة إلا من رئيسى

تأثر نازا كشى باشي تأثراً عظيما بهذا القول فأظهر غضبه وكانت كلماتى بمثابة الهواء الذى يهب على نار موقدة فيزيدها اتقاداً . وخشيت بأس السردار إن علم بعد ذلك بأمرى فيبطش بى فرأيت أن أختفى من الميدان واستأذنت رئيسى أن يسمح لى بالعودة إلى طهران فسر النازا كشى باشى من منحه هذه الأجازة لى لأن ذلك يفهم السردار أنه وحده صاحب السيطرة على أتباعه . وأمرنى بتبليغ رسائل إلى رئيس الوزراء تدل على أنه قام بعمل هام فى المعارك وأن غيره لم يقم بأى عمل وقال لى : « لقد حضرت المواقع بنفسك يا حاجى بابا وأنت قادر على وصفها ونحن لا نستطيع مع الأسف أن ندعى أننا انتصرنا لأنه ليس لدينا من رؤوس الأعداء ماتستطيع إرساله ولكننا مع ذلك لم نهزم ، السردار قائد حار لأنه بدلاً من أن ينتظر وصول المشاة عرض فرقة الفرسان لخطر الهزيمة لهجومه بها وحدها وهو لم يفعل غير أن نبه الأعداء إلى وجودنا فأطلقوا فى وجوهنا أبواب المدينة واضطروه إلى التقهقر المزرى بكرامة الجيش الفارسى . ولو أننى كنت القائد لأريتكم كيف ينبغى أن تسير الأمور . ولا تنس أن تقول لرئيس الوزراء إننى أول من جرح فى الجيش لأنى كنت أجرأ الجنود على التقدم

وبعد أن سلمنى خطاباً لرئيس الوزراء وعريضة للشاه أمرنى بالذهاب . وذهبت فوجدت الشاه لا يزال فى السليمانية على الرغم من أن الخريف كان على الأبواب ، وبمجرد وصولى قدمت نفسى إلى رئيس الوزراء وأعطيته الرسالتين فرحب بى وقال : « لقد كنت أنت أيضاً فى حاملو وقد بلغتنا الأخبار من رسائل السردار ، أن الكفار لم يجرؤا على رفع السيف فى أوجه الفرسان الايرانيين ومن هم الذين

يجرؤون على ذلك ؟ لقد علمت أن رئيسك جرح فى المعركة وقد برهن على أنه من أحسن خدم الشاه ولا بد أن تكون جنودنا الآن على الشاطئ الآخر من النهر

لم أكن أجيب على هذه الأقوال إلا بقولى : « نعم ، نعم » أو « لا ، لا » ثم نادى كاتبه وأمره بأن يصدر بياناً ينشر على الأقاليم والقرى ويعلن فيه انتصار الجنود الايرانية فى جهات متعددة خصوصاً فى منطقة خراسان على جانبى النهر فنظر إلى الكاتب وسألنى : « كم عدد جنود الأعداء ؟ »

قلت : « كثير جداً » ثم ترددت فى تقدير العدد قليلاً وقلت : « اكتب خمسين ألفاً »

فقال : « وكم عدد القتلى منهم ؟ »

فقال رئيس الوزراء : « اكتب عشرة آلاف أو خمسة عشر ألفاً فانه لا يليق بجيش الشاه أن يقتل أقل من هذا العدد . هل تريد أن تجعل الشاه فى نظر الشعب والشعوب المجاورة أقل من رستم أو أفرسياب ؟ هل كتبت ؟ »

قال الكاتب : « لقد كتبت ما أمرتم دولتكم به » ثم قرأ ما كتبه وهو : « إن الكفار من كلاب موسكو طردهم الله من رحمته ، لم يجرؤوا على التقدم من جيشنا مع أن عددهم يربو على خمسين ألفاً وعددنا لا يتجاوز بضعة آلاف وقد أمكننا الله منهم ففتلنا فى المواقع الأولى عدداً يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً »

قال رئيس الوزارة : « بارك الله فيك ! هذه كتابة حسنة وإذا كان الواقع يخالف ذلك فان حسن حظ الشاه كفيل بأن يجعل عدد القتلى أكثر من ذلك فى أقرب وقت »

فاستشهد الكاتب ببيت شعر للسعدى يقول فيه : « إن الأكذوبة التى منشؤها حسن النية لا تعد أكذوبة بتاتاً »

ثم قام الوزير فذهب إلى الشاه وتبعته فى جملة من تبعه من الخدم والأتباع ثم نظر إلى الكاتب وقال : « أنا الآن فى غنى عنك فلك أن تذهب وتستريح »

الفصل الثالث والأربعون

عاينى بابا يرى قصة فتلمس به نكبة

بعد أيام قليلة عاد الشاه وحرسه إلى طهران وكان موكبه فى عودته من الهيبة والجلال كما كان عند ذهابه وعدت إلى عملى الأول مساعداً لرئيس الجلادين وكنت مشغولا بتعليم الجنود الجدد الذين حلوا محل الذين أرسلوا إلى الحرب . وبعثت برسالة إلى طهران أبلغهم فيها أوامر الشاه بأن يجعلوا الراقصات والمغنيات على استعداد لمقابلة جلالته . وكان القصر الذى فيه المغنيات والراقصات بمكان يبعد عن العاصمة ثمانية أميال أو تسعة

ولما أبلغنى الشاه هذا الأمر لارساله عدت فذكرت زينب التى كدت أنساها وتجددت مشاعرى التى كادت تخمد

كان قد انقضى على أول يوم تعرفت فيه بزينب أكثر من سبعة أشهر . وعلى الرغم من أن القوم الذين عاشرتهم فى خلال هذه المدة كانوا من التوحش بحيث ينسى كل من يعيش فى وسطهم كل ما فى نفسه من شعور نبيل — على الرغم من ذلك فقد كان تأثرى شديداً عند ما ذكرتها وذكرت الحالة المزعجة التى لا بد أن تكون قد وصلت إليها . وقلت فى نفسى : « لقد مرت بى أثناء معرفتها عهود

مختلفة تتعاقب فيها الخوف والرجاء والأمل واليأس ولم يبق فى عهد النزاع فى حبها إلا أمد قصير ، ثم أجد نفسى أمام القضاء المقدر ، فاما أن يتحقق الأمل وإما أن ترجح كفة اليأس

ولما جاء يوم السفر سبقت الموكب إلى القصر لأرى كل الاستعدادات التى أمر بها الشاه هل تمت وفق رغبته أم لا يزال بها شىء من النقص مفتقر إلى الاصلاح ؟

ولما وصلت إلى باب ذلك القصر سمعت من فيه من السيدات يتحدثن . وما كان أشد شوقى فى تلك الساعة إلى التحدث مع زينب أو إلى رؤيتها إن كان التحدث مستحيلا

لكننى وجدت أن سؤالى عنها بنوع خاص سيثير الريبة وقد يكون فيه خطر على حياتها وعلى حياتى فاكتفيت باستدعاء رئيس القصر وسؤاله عما فعله بالأوامر وأطلت حديثى معه مراجعاً فى الجواب مناقشاً فى التفاصيل لعلى أسمع فى خلال هذه المدة صوت زينب ولكن عبثاً ذهبت هذه المحاولة فانى لم أسمع صوتها ولا اسمها

وفى أثناء هذه الوقفة جاء سيدى القديم ميرزا أحمد رئيس أطباء الشاه وفهمت أنه جاء بدعوة من أهل القصر لمعالجة بعض من فيه فخشيت أن تكون زينب هى المريضة . وقلت إنها لو كانت كذلك فهى هالكة لا محالة

لكن الطبيب استدعانى إلى ركن من الغرفة وهمس فى أذنى بأنه شديد الخوف من غضب الشاه لأن الفتاة الكردية التى أهداها إلى جلالته منذ سبعة أشهر لم تستعد لمقابلته عند عودته كما أمروها معتذرة بأنها مريضة

قال لى الطبيب : « وتجدنى شديد الخوف من استدعائى لمعالجتها لأنى إن قلت إنها غير مريضة هلكت الفتاة وإن قلت إنها مريضة هلكت أنا وإنى لآسف على إهدائها إليه وإنى لألعن الساعة التى شرف فيها الشاه منزلى »

ذهب الطبيب بعد أن قال لى ذلك إلى منزله وعدت إلى خيمتى وأخذت أعزى نفسى بأن زينب مريضة وأن مرضها سيطول وسيمنعها من مقابلة الشاه وأخذت أدعو الله أن يطيل مرضها ليطول أمد امتناعها عليه ، ثم أخذت أفكارى تتجه فى كل اتجاه حتى حاولت فى النهاية إقناع نفسى بفضل الزهد وضرورة التصوف ، وما ذلك منى إلا حيلة العاجز وسلوة اليائس

وأخيراً أعلن سفر الشاه إلى طهران فاجتمع أهلها لتحيته واستقباله وكنت فى ذلك الوقت شديد الرغبة فى مقابلة الطبيب مع التظاهر بأن هذه المقابلة جاءت مصادفة حتى لا تحوم حولى ريبة ولا يسوء بى ظن ، ولقد تقابلت معه عند وصولنا إلى طهران ولكن كان ذلك لسوء حظى فى وقت غير مناسب . وتفصيل الخبر أنه أصدر لى الأمر فى ذلك اليوم بالذهاب إلى الميدان لتبليغ رسالة إلى الناز كشى باشى

وفى الساعة التى تلقيت فيها هذا الأمر رأيت رئيس الأطباء خارجاً من حجرة الملك ، وقد بدت على وجهه علائم الغم والحزن الشديدين ، وانحنى ظهره فرافقته قليلا وسألته عما به . فقال : « لقد جعلتنى هذه اللعينة الكردية فى أشد حالات البؤس والنكد . فان الشاه غضب غضبة شديدة ، وأقسم أن يقتل كل رجل فى داخل القصر أو خارجه ما دامت له علاقة به إذا لم تظهر هذه الفتاة »

قلت متجاهلا : « من هى ؟ »

فقال : « هى زينب التى أهديتها إليه . وقال إنه سيقتل الوزراء أيضاً إذا لم يعرفوا كيف كان اختفاؤها من قصره »

قلت له : « يظهر يا ميرزا أحمد إن الشاه يعتقد أن الفتاة تحبك » فاضطرب الرجل أيما اضطراب وقال : « أستغفر الله ! أرجوك ألا تعيد هذا القول فتحوم حولى شبهة قد تصل إلى سمع الشاه فينقلنى إلى العالم الآخر . من الذى قال لك ذلك ؟ كيف علمت أنى أحب زينب ؟ »

قلت : « لقد سمعت كثيراً جداً عن حبك وإلا فما الذى دعاك وأنت جالينوس فارس ولقمان عصرك إلى تربية فتاة يزيدية من عبدة الشيطان فى منزلك ؟ ألست تعرف أن وجود فتاة مثلها يكفى لخراب بلد أو مملكة فضلا عن بيت مثل بيتك »

فقال لى رئيس الأطباء : « نعم لقد صدقت يا حاجى بابا » ثم هز رأسه يمنة ويسرة وقال : « لقد كنت شديد الحماقة لما افتتنت بسحر عينيها وإن عينيها لساحرتان »

قلت : « ما الذى يفعل الشاه إن وجدها ؟ »

فقال : « ليفعل بها ما يشاء ! ليرسلها إلى جهنم إلى بيت الشيطان الذى تعبده ؟ إننى لا أفكر فيها ولكننى أفكر فى نفسى » ثم نظر إلى نظرة حنو وقال : « أنت تعرف يا حاجى بابا أننى كنت دائماً أحبك وقد آويتك فى منزلى عندما كنت بغير مأوى وارتفعت مكانتك بفضل مساعدتى وأريد منك أن تدل على عرفانك الجميل وأمامك الآن فرصة سانحة »

ثم مسح لحيته بيديه وقال : « أنت تعرف ما أردت أن أقول »

قلت : « لا ، فانى لم أفهم شيئاً » فقال : « سأفهمك إذن فى كلمتين ، إنك لا تزال شاباً فاذا قيل لك إنك أنت الذى أحب هذه الفتاة فان هذا لا يضيع من اعتبارك وليست هذه الحالة كذلك فيما يتعلق بى »

قلت : « يضيع اعتبارى ! إن المسألة تؤدى إلى ضياع الروح لا إلى ضياع الاعتبار . هل أنت مجنون ؟ لماذا تريد أن أموت وكيف تحتمل دمى ؟ إن كل ما أستطيع أن أقوله هو أننى أعتقد أنك غير مذنب لأنك شديد الخوف من زوجتك ولكننى لن أقول إنى أنا المذنب »

وفى أثناء هذا الحديث أقبل نحوى خصى من خصيان الشاه وقال لى : « لقد أمر الشاه باستدعائك أنت وخمسة من النازا كشية وبأن يكون معهم تابوت ليقطعوا جثة بين يدى جلالته »

فقلت : « سأحضر فى الحال » وكان مجىء الخصى فى هذه اللحظة من حسن حظى لأن الطبيب تركنى ثم تصبب من كل جسمى عرق بارد وأحسست أن عينى تحترقان وأننى على وشك الاغماء وقلت فى نفسى : ألا يكفى أن أكون أنا السبب فى موتها حتى أطالب بأن أكون جلادها أيضاً ؟ لماذا أدعى إلى هذه المهمة الشنيعة ألا أستطيع أن أهرب من هذا المنظر البشع ؟ لا أظن شيئاً من ذلك فى الامكان لأنه لا مفر مما قدر علىّ ولا مناص من أداء ما كلفت به ، ما أقبحك أيتها الدنيا ! ماذا يكون نصيبك فى قلوب الناس لو اطلع كل منهم على حقيقته ؟ »

فى هذا الوقت كنت أشعر أن قلبى يتوء تحت عبء ثقيل ، وجمت الرجال الذين سيتولون منى تنفيذ العقوبة الوحشية ولم يكن أحد منهم يبالى لأنهم

لا شأن لهم وليس فى نفوسهم مثل ما فى نفسى من العطف

وكان الوقت إذ ذاك وقت الغروب وقد اختضبت السماء بلون دموى وتزايل نور النهار . وكانت ليلة البدر ولكن السماء ملبدة بالغيوم

ولما أذن المؤذن لصلاة العشاء أحسست أن صوته يبعث الموت فى نفسى لأن هذا الصوت كان نذيراً بموت الفتاة . وذهبت مسرعاً إلى المكان المعهود فوجدت أصحابى قد وصلوا إليه وهم جالسون بغير مبالاة على التابوت الذى ستدفن فيه زينب وقلت لهم : « هل انتهيتم ؟ »

فقالوا : إنهم لم ينتهوا

وبعد ذلك ساد صمت رهيب وقد كنت أتمنى أن يكونوا قتلوها قبل مجيئى حتى لا أشهد هذا المنظر المنكر . أما وهو لم ينته فلا بد لى من رؤيته. وبعد قليل جاء رجلان من خدم القصر يقودان بينهما فتاة تصرخ بصوت مرعب كأنه صوت عشرين مجنوناً يضحكون فى وقت واحد ، وكان الرجلان يجرانها بعنف وهى تقاوم وتأبى المسير

وكان صوتها يشتد كلما دنت منا فبدا التأثر حتى على أوجه الجلادين الغلاظ القلوب ، أما أنا فذهلت ، ولو سئلت فى هذه اللحظة عن شعورى لما استطعت وصفه أو تحديده وقد كنت بالرغم من ذهولى وشرود ذهنى قادراً على رؤية ما يجرى أمامى من الأمور

وأخيراً سمعت صرخة عالية تلاها صوت جسم يقع على الأرض وإذا نسيت شيئاً فيستحيل أن أنسى المرارة التى شعرت بها عند سماع هذا الصوت ثم رأيت جسم زينب ملقى على الأرض فى وسط الدماء . وكانت لا تزال تتنفس وسمعت ألفاظاً تقولها ولكننى لم أفهم معناها ثم خفت صوتها وصاح أحد الخادمين اللذين جاءا بها : « هل ماتت ؟ »

فقال أحد الأوغاد الذين معى : « نعم »

قال ذلك الخادم : « إذن فضعوها فى التابوت واذهبوا بها إلى الجحيم »

وقمت فتمتمت متمتمتى فى دم زينب وقلت إنه أثر منها سيبقى معى ما دمت حياً . ووضع الأوغاد جثتها فى التابوت وحملوها إلى المدفن ليدفنوها فى قبر كان قد أعد لذلك من قبل ، ومشيت معهم بحركة آلية ورجلاى لا تقويان على حمل جسمى

ووضعا التابوت على الأرض وأخرجا منه الجثة وجلست على قبر قريب منه وأخذت ألاحظ ما يفعلون وقد رأيتهم وهم يضعون الجثة فى القبر ثم يثبتون الأحجار فى مدخله

ولما انتهوا نظروا إلى وقالوا : « لقد فرغنا » . فقلت : « إذهبوا الآن وسأتبعكم » . وظللت جالساً على القبر

واشتد ظلام الليل ، وكنت فى ذلك الوقت أسمع الأصداء تتجاوب من ناحية الجبال ، وكانت رغبتى فى العودة تقل كلما طالت مدة جلوسى بهذا المكان ، وذكرت حياتى الماضية عهداً بعد عهد وأحس قلبى بخشوع ورهبة ، وزهدت الحياة التى أعالج الآن مرارتها كأشد ما رأيت فى أدوار الحياة وأخيراً عزمت عزماً صادقاً أكيداً على أن أكون درويشاً بالمعنى الصحيح لا كما يعيش الدراويش

ظللت فى هذا المكان حتى انبثق الفجر وأنا أدبر خطة لحياتى المقبلة ، واستقر رأيى فى النهاية على أن أذهب سائراً على قدمى إلى أصفهان حيث

أرى أهلي وأعيش معهم عيشة الزاهد المتصوف ، وقلت إن أبي أصبح في أخريات أيامه فلعلي أن أسعده بعودتي إليه وهو في سن الشيخوخة ، وأحتمل عنه ما لا يطيق احتماله من أعباء الحياة وتكاليفها ورأيت أن بقائي في منصبي أو في هذه المدينة أصبح مستحيلا لأنه فوق طاقتي . ولو بقي في نفسي الشعور الذي كنت أحس به هذه الليلة لعرت من أتقى أولياء الله وأكثرهم ورعاً

الفصل الرابع والأربعون

عاصي بابا يقابل صديقاً يساعده ويمنع عنه الخطر

أخرجت من جيبي المنديل المصطبغ بدم زينب وأخذت أفكر في مركزي المخيف المرعب ثم وقفت أمام القبر وأقمت الصلاة . وقد أراحت هذه الصلاة صدري وجددت قواي فعزمت في الحال على مغادرة طهران وسلكت الطريق المؤدي إلى أصفهان

وصلت إلى الطريق المؤدي إليها فلم أر قافلة مسافرة فمشيت إلى الصحراء وهناك وجدت رجلا غريب الشكل والحالة يخاطب شيئاً أمامه على الأرض ، فدنوت منه ووجدته يكلم عمامته . ولما زدت اقتراباً منه وجدت أني أعرفه وهو أحد الدراويش الثلاثة الذين تعرفت بهم في مشهد وهو الذي كانت صناعته القصص وإلقاءها في الجامع

ولما وقع نظره علي عرفني وأقبل نحوي ليعانقني وسألني عما كنت أفعله في هذه السنوات . وقال إنه مسرور برؤيتي . ولم يزل حديثنا يتقدم خطوة فخطوة حتى تذاكرنا ما كان من أمره وأمري وقال لي إنه ذاهب إلى الآستانة وإنه سيذهب منها إلى دلهي بعد أن يقضي فصلا في أصفهان

ولم تكن لدي رغبة في الكلام لما كنت أشعر به من الهم ولكن مسلك الرجل هو جعلني أتكلم معه وأصغي إليه

سردت عليه قصتي منذ فارقته وقد أعجبني منه ما كان يظهره من الاحترام الشديد لي حتى إذا وصلت إلى القول بأني عينت مساعداً لرئيس الجلادين كاد الرجل يسجد أمامي لأن تجاربه دلته على وجوب الاحترام لكل من يشغل مركزاً كبيراً . ولما أخبرته أني تركت هذا المنصب وتركت طهران ، شعرت بأن مركزي يسقط من عينه وقال لي إنني لا أساوي ثياب الشرف التي كنت ألبسها . وقال: « أهكذا يضحي إنسان بحاضره ومستقبله من أجل امرأة ؟ »

ثم أطرق مدة طويلة قال لي بعدها : « إن سير الناس إلى السعادة غريب متفاوت ، فبعضهم يسير إليها من أخصر طريق، والبعض يسير إليها من الطريق الذي لا يؤدي إلا إلى ضدها . والبعض يسير دون أن يسأل إلى أية جهة يؤدي طريقه ، والبعض إذا ما اقترب من غايته عاد من نفس الطريق الذي كان يسلكه زاهداً في الغاية مستخفاً بالمتاعب التي عاناها في سبيل الوصول إليها» واستشهد بأبيات للفردوسي في هذا المعنى

وبينما نحن نتحدث إذ رأينا (خانا) فقال لي الدرويش « تعال وانس أحزانك . تعال معي فاننا سنقضي ليلة لذيذة في هذا الخان وسأقص عليك أخباري أثناء وجودي في الآستانة »

كنت راغباً في تسلية نفسي لعلي أنسي همومي فقبلت اقتراحه ومشيت معه إلى ذلك البناء . وقد وجدنا فيه ناساً من جهات متعددة في فارس . وبعد

أن استرحنا من مشينا الطويل أكلنا أكلة شهية ثم طلبنا ترجيلتين وبدأ يقص على قصته التي وعد بها

وكنت أحاول الاصغاء إليه ولكني وجدت ذهني شارداً بي بعض ما يسمع وبفوته البعض ولاحظت أن سائر سامعيه كانوا منصتين أشد الانصات وقد أبدوا أعظم اهتمام؛ ودلني على ذلك أني كلما تغيبت في لجة الذكريات نهى بعضهم وعزمت على أن أستعيده هذه القصة في وقت آخر لكثرة ما فاتني منها. وكنت أحسد أصدقائي المسرورين على سرورهم وتقت إلى حلول الوقت الذي أكون فيه مثلهم

انتهى النهار عند ما انتهت القصص التي كان يرويها وأشرق البدر وكانت السماء صافية لا شيء فيها من الغيوم التي كانت متلبدة في سماء الأمس. وبينما نحن جالسون إذا أقبل نحو الخان فارس يعدو على جواده

وكان من في الخان يدخنون في النلابين ويتناقشون بهدوء. وكان خدمهم يتولون تهيئة الأسرة للنوم، وأما أنا فعزمت على أن أنام على الأرض العارية وأضع تحت رأسي قطعة من الحجر ولكن لما وقع نظري على الفارس المقبل تغير رأيي في ذلك

كان هذا الفارس أحد النازا كشية الذين حضروا مع مقتل زينب وقد فهمت الغرض من مجيئه عند ما سمعته يقول لبواب الخان: « هل جاءكم أحد من طهران ؟ » وفهم الدرويش حقيقة الأمر بسرعة مدهشة لأنه كان على الدوام حاضر البديهة ولذلك أسرع إلى الباب ليتولى الاجابة على كل سؤال يوجه إلى البواب أو إلى غيره

وقد قال له إن كل من بالخان أتوا من جهات متعددة ولكنهم جميعاً ذاهبون إلى طهران إلا إياه فإنه آت من الآستانة وقال إنه رأى رجلا أخذ يصفه بكل صفاتي ليوجه إليه اهتمام النازا كشي. وبعد أن أتم الوصف حتى لم يعد ينقص إلا أن يذكر اسمي، قال له: إن ذلك الرجل ذهب من طريق كذا ... وأخذ يضلل النازا كشي على أن يحذرني فيما بعد من سلوك هذا الطريق

وقد كنت أطيق أي شيء سوى أن يظفر بي هذا الجلاد لأنه إنما جاء ليقبض علي؛ ومحال أن أجد في نفسه أو في نفس غيره من الجلادين شيئاً من الرحمة. وبعد أن ذهب ذلك الوغد وعاد الدرويش سألته عن المكان الذي يمكن أن أذهب إليه فلا يدركوني فقال لي: إذهب إلى مدينة « قم » وستصل إليها في الصباح. ومتى وصلت إليها فاذهب إلى قبر السيدة فاطمة الزهراء فهناك ملجأ لا يصل إليك فيه أي إنسان، وإذا ضبطت خارج سور المدفن فلا أمل لك في النجاة »

قلت: « ولكن كيف آكل وأعيش في داخل المدفن ؟ »

فقال: « اترك لي ذلك فأني سأعولك لأني أعرف المكان وأعرف كثيرين فيه. وقد اضطررت مرة إلى الالتجاء إليه لأني قدمت سماً لاحدى نساء الشاه لكي تقتل به منافسة لها » وكان وصولي إلى المدفن قبل خمس دقائق من وصول الجلاد الذي جاء ليقبض علي ولم أعش قط معيشة أرغد من عهدي في ذلك المدفن لأني كنت لا أعمل أي عمل، وكان زائرو المقبرة على كثرتهم يعطونني كل شيء تميل نفسي إليه. والشيء الوحيد الذي أخشاه في هذه الحالة هو أن يصدر الشاه أمراً يمنع الناس من إعطائك طعاماً، وبأن من يخالف ذلك يصبح مستحقاً

للاعدام ، ولكن حالتك لا تدعو الشاه إلى إصدار مثل هذا الأمر الذى لا يلجأون إليه إلا فى حالات خاصة شديدة الأهمية

قلت له : « أنا لست أنسى جميلك ، وربما عاد نجمي إلى الارتفاع فأريك أنى لست ممن يضيع الجميل عندهم ، وأنت تعرف حاجى بابا من زمن قديم وهو ليس من الذين يضعون حسناتهم على راحة اليد ويخفون سيئاتهم تحت الآبط وأنا لاأزال كما عرفتنى فى مشهد فبائع التبغ فى تلك المدينة هو نفسه مساعد النازاكشى باشى » فصافحنى الدرويش وقال: « اذهب حيث شئت فان الله معك »

فسرت ، ولما طلع الفجر رأيت على بعد قبة القبر ؛ ولما صرت على مرمى السهم من مدينة قم رأيت ذلك الفارسي يبدو نحوها فلم أنظر يميناً ولا يساراً حتى وصلت إلى القبر الشريف فقبلت عتبته وحمدت الله وشهدت أن لا نبي بعد رسوله وصليت على الامام على

وفى هذه اللحظة وصل النازكشى لخيانى تحية فاترة وقال إن الشاه أمره باحضارى من أى مكان يجدنى فيه . فقلت له إنى قد لجأت إلى هذا القبر ولن أفارقه باختيارى . فاذا كان لديه أمر من الشاه بأن يفعل ما لا يتفق مع حرمة هذا المكان فليأخذنى بالقوة .

قال لى : « وما الذى أفعله إذن يا حاجى بابا ؟ إن الأمر الذى صدر لى لا يتضمن استثناء وإذا عدت دونك فربما قطع الشاه أذنى بدلا منك »

فقلت : « سيفعل ذلك إن شاء الله »

قال وقد استولى عليه الغضب : « تقول إن شاء الله ؟ إننى أكون حماراً إذا لم أعد بك » ثم ارتفع صوتى وصوته فأقبل الدراويش المقيمون فى هذا المكان وسألونا عن السبب فقلت لهم : « إن هذا الجندى يهين المكان المقدس الذى لجأت إليه ويريد أن يأخذنى بالقوة . فقولوا له هل تسمحون بذلك أم لا »

انضم الجميع إلى جانبى وقالوا ما سمعنا قط بمثل هذا من فارس ، فأنت لا تستطيع أخذه وإلا استثرت ضدك غضب الزهراء وعلماء الدين جميعاً ؛ ولن ينجيك من غضبهم انتهازك إلى الشاه أو لجوءك إلى حماية الشيطان »

فلم يعرف النازكشى بماذا يجيب وبقى هادئاً مدة ثم ألان صوته وأراد أن يفاوضنى فى المبلغ الذى أدفعه إليه إذا تركنى وعاد وحده . فلم أنكر عليه حقه فى أن ينال ما يعوض عليه مشقة التعب لأنى ما كنت أفعل غير ذلك لو كنت فى مكانه ولكننى أفهمته أننى لا أستطيع أن أدفع غير القليل لأنه يعرف الظروف التى غادرت فيها طهران . لكنه أصر على أن أدله على المكان الذى تركت فيه مالى بطهران ليأخذه متى عاد فأبيت ذلك عليه وأمرته أن يذهب ويترك المحزونين فى أحزانهم

لكن الحقيقة أن الرجل كان قد أخذ ماوصلت إليه يده من أمتعتى وثيابى وفراشي وأثاث منزلى وهو الذى أبلغ الشاه عنى وتطوع لمطاردتى لكى أمكنه من الحصول على ما ظننى أملكه من مال مخبوء

وكان قد لاحظ حالتى ساعة نفذ الحكم فى الفتاة وتوقع أن يحل بى نكبة فيحل محلى فى منصبى

ولما رأى أن الأمر الذى معه ليس إلا قصاصة من الورق لأنه لا يستطيع اعتقالى مادمت فى ذلك الملجأ — لم يجد بداً من العودة إلى طهران ولكنه قبل أن يذهب أوصى حاكم المدينة بأن يشدد فى مراقبتى وبأن يعتقلونى متى خرجت من الملجأ ويرسلنى إلى طهران

« يتبع »

عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة لشارع الجبرتى — عابدين ﴾